ونِعْمَ التربيةُ!

تعالت أصواتُ الضجيج تميِّزُ مشاجرةً عنيفة لا تخطؤها أذن، حتى إنَّها غطَّت على ضوضاء الحارة التي لا تنقطع ليل نهار.. انفتحت النوافذُ، وأطلت الرءوس، وتطلَّعت الأعين ترصد أطراف تلك المشاجرة...

لم تتعرف (أم محروس) على المشاجرة من بدايتها ولا على دوافعها وأسبابها... لم تدرِ شيئًا عنها؛ فقد غطَّى صوت "التليفزيون" المرتفع بأحداث حلقة من المسلسل التليفزيوني الذي كانت تتابعه بشغف، حتى طرق الباب طارق... وبضجرٍ بالغٍ نادت أبناءها المنتشرين بأرجاء الشقة ليفتحَ واحدٌ منهم الباب، وهي تصبُّ لعناتها على أهل البيت المتكاسلين، وعلى ذلك المزعج اللحوح... وما إن انفتح الباب حتى قذف الطارق الغريب بكلماتٍ اختلطت بأنفاسه اللاهثة داخل جدران الشقة كالقنبلة:

- الحقي! الحقي يا خالتي (أم محروس)! (كَبَاكَة) بيتخانق في الشارع!

وكان (محمود) أو كما يسمونه (كَبَاكَة) آخر العنقود... الحبيب الغالي... فخرجت المرأةُ ثائرة الشعر بملابس البيت حافية القدمين.. انطلقت متحفِّزة كالنمرة... متأهبة لتأكل كبد من ضرب ابنها...

وفي لحظات كانت في وسط المشاجرة تنتشل ابنها من بينها... كانت المشاجرة بين الولد (كَبَاكَة) وبين صبيٍّ في مثل سنه على جنيهات قليلة ادَّعى كلٌّ منهما أنَّها مصروف يده... وكانت الغلبة لابنها الذي لم يكتفِ بانتزاع المبلغ من الضحية، بل وبطح خصمه، ورشق والده، "وكل اللي يتشَدِّد له" بالحجارة وبقذائف من الألفاظ البذيئة...

وما إن اشتكى والد الضحية إلى (أم محروس) حتى انفجرت فيه كالمدفع:

- راجل كبير وتعمل عقلك بعقل عيِّل صغير؟!
- أنا برضه؟! ده ضربني وشتمني، وعَوَّر الواد، وأخد منه مصروفه!
- لا ابنك اللي ضربه... أنا ابني ما يكدبش!

وبعد وصلة من "الرَّدْح" تدخَّلَ أولاد الحلال لفضِّ المشاجرة وتوابعها...

- خلاص يا (أم محروس)! كفاية كده! اطلعي بقى!

فانفجرت فيمن كان حولها:

- هو إيه ده اللي خلاص! لازم أعرَّفهم مقامهم كويس! انتَ مالك يا راجل يا...!

بعد فترةٍ يبدو أنَّها تعبت فقرَّرت أن تنهي الجولة سريعًا مكتفيةً بما أحرزته من انتصارٍ فانسحبت من الميدان تتلفَّح بلسانٍ يحميها وتضرب به هنا وهناك، تحمل ابنها المنتصر... صعدت درجات السلم وابنها يتبعها حتى دخلت الشقة عبر بابها الذي لم يزل مفتوحًا، وأغلقته خلفها في قوةٍ بعد أن جذبت ابنها من ذراعه إلى الداخل بعنف... وصاحت في وجهه:

- ادخل يا واجع قلبي! كل يوم تعمل لي خناقة... انتَ إيه ما بتتعبش؟! منك لله! دايمًا مِبَهْدِلْنِي وراك في كل حتَّة!

زمجر الولد في غضب قائلًا بلهجته المتبجِّحة:

- يعني أسيب العيال يكلوني؟!

وبعد أن هدأت الأم وأدركت بقية من المسلسل نادت عليه، وقد غاب بين دهاليز الشقة، فجاءها متثاقلًا:

- إيه؟! فيه إيه؟! بتناديلي ليه؟! عايزة إيه؟!
- فين الفلوس اللي خدتها من الواد؟!
- دي فلوسي! هو انتِ ادتيني حاجة؟!
- هاتهم! هاتهم أحوشهم لك!
- لا يا ستي... هتخديهم ومش هتجبيهم!
- بقولك هاتهم أحوشهم لك!

حاول الابنُ أن يتوِّه الأمَّ لكنَّها قطعت عليه كلَّ طريقٍ حتى سلبته إيَّاهم... وقالت:

- جدع يا واد... اللي يضربك اضربه... اعدمه العافية... خُدْ حقَّك بدراعك! بقولك إيه! خد الجنيه ده جيب لنا بيه مسحوق غسيل من عمك (إمام) البقال...

أخذ (كَبَاكَة) منها الجنيه وانطلق يعبر بوابة منزلهم قفزًا... التقى بأولاد الحارة يلعبون البِلِي... أغـروه باللعب معهم... نسي نفسه، ومرَّ الوقت، وخسر الجنيه في مراهنات اللعب...

وقفت الأمُّ في الشرفة تنادي عليه وقد جُنَّ جنونُها تسبُّه بأقبح الألفاظ... تلوِّحُ له بالعقاب...

أبدى (كَبَاكَة) تأففًا شديدًا وهو يجيبها:

- يووووه.. حاضر! طالع...

تضاحك أصحابه وأشبعوه سخرية:

- اطلع! استلقَّى وعدك!

- ولا يهمَّني... هتعملِّي إيه يعني؟!

وطبعًا بعد ما "اترَّن العلقة السخنة" التي لم تتعبه بقدر ما أتعبت يد الأمِّ وهدَّت حيلها... أفلت من يديها، وردَّ سبابها كلمةً بكلمةٍ بتبجحٍ...

أخذت الأمُّ كلام ابنها بتحدٍّ، وعزمت على ضربه على قلة أدبه، وبعد أن همت بالقيام إليه تراجعت... نسيت جميع ما قال لتدرك ما تبقَّى من المسلسل...

*****